علّمتني الحياة :

الحلال ينمو والحرام يُمحَق

مقال تأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

رحمه الله تعالى

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة الوعي الاسلامي الكويتية- العدد رقم 309 -

السنة 26 - 1990 - ص 55-60

1410 هـ - 1990 م

للواء الركن:
محمود شيت خطاب



بنَى أحد ولاة الموصل على عهد العثمانيين، جامعا ضخما في حي باب الأبيض من مدينة الموصل، ولا يزال ذلك الجامع قائما حتى اليوم، وخصص الوالي لذلك الجامع شيخا من الشيوخ، ليكون إمام الجامع وخطيبه .

ولما اكتمل بناء الجامع، وأصبح عامرا بالمصلين، سأل الوالي يوما من الأيام شيخ الجامع: « ما عسى أن يكون لي من أجر عند الله تعالى، لقاء تشييدي هذا الجامع الكبير؟».

وأطرق الشيخ إمام المسجد طويلا، ثم قال للوالي: «لابد لي من مراجعة الكتب، لأستطيع أن أقدم لك الجواب» .

وضرب الشيخ للوالي موعدا: أن يحضر المسجد مساء اليوم التالي، ليسمع جواب سؤاله، ولم يكن الوالي مستقيما في عمله، ولا نزيها ، وكان ظالما قاسيا، يصادر أموال الناس ظلما، ويحب المال حبّاً جماً، ويكتنزه حلالا وحراما .

وقدم الوالي الجامع في الموعد المضروب، وهو يتوقع أن يسمع من الشيخ ما (يحب) أن يسمع

لا ما (يجب) أن يسمع ، وذهبت به أمانيه كلّ مذهب ، فعاد إلى الشيخ مستبشرا مساء اليوم الموعود، مؤملا أن يُفضى إليه بالجواب الذي يشرح الصدر ولو إلى حين .

وكان الشيخ من علماء الرحمن لا من علماء السلطان ، وكان ذلك الوالي يطربه سماع ثناء علماء السلطان ، فتوقع أن يسمع ثناء جديدا ، كالمريض الذي يريحه المخدر ولا يشفيه .

وأخذ الشيخ بيد الوالي الى باب الجامع، ووقفا جنبا الى جنب، وكانت الشمس في ذلك الوقت تنحدر رويدا رويدا الى المغيب .

وكان سكان حي باب الأبيض (باب البيض) من مدينة الموصل، يقتنون الأبقار والأغنام في بيوتهم وكانوا يوكلون أمر رعايتها الى أحد الرُّعاة، الذي كان يأخذها من أصحابها صباح كل يوم، ويعود بها اليهم قبيل غروب الشمس، ويقضي ساعات النهار في رعيها في مراعي الموصل الغنية بالأعشاب في السهول والهضاب والوديان.

وكانت تلك الأبقار والأغنام، لكثرة ما تخرج من دور أصحابها صباحا، وتعود اليها قبيل حلول الظلام، قد ألفت طريقها الى دور أصحابها وعرفتها ، فهي تخرج منها وتعود اليها بغير دليل .

وأقبل الراعي يهش بعصاه على أبقاره وغنمه وهي في قطيع كبير، والشيخ والوالي يقفان على باب الجامع يتجاذبان أطراف الحديث، والراعي يهش على قطيعه ، وهي فرحة بالعودة الى حظائرها ، فانطلقت الأبقار والأغنام الى اصحابها، وعاد الراعي الى أهله يتوكأ على عصاه، وابتسم الشيخ الوقور، وهو يرى القطيع ينفض عن الراعي ليلحق بدور مالكيه، فيعود الراعي إلى أهله وحيدا ، وقال للوالي والابتسامة تُضيء وجهه الوقور : «مثلك عند الله في جزاء ماأنفقت في بناء هذا الجامع ، كمثل هذا الراعي ، فإذا كان لك شيء في القطيع من الأبقار والأغنام ، عُدت بها إلى أهلك ، وإلا تفرقت أبقار وأنعام القطيع ، وعادت كل واحدة منها إلى دار صاحبها ، وعُدت أنت صُفر اليدين» .

وازدادت ابتسامة الشيخ اتساعا واشراقا، وازداد وجه الوالي تقطيباً وعبوسا، وعاد الشيخ الى مسجده لصلاة المغرب، وعاد الوالي الى بيته غضبان أسفا .

وفهم الوالي أن أجره عند الله في بناء الجامع، هو بمقدار ما قدمه في بنائه من ماله الخاص ، الحلال ، أما ماقدمه من ماله الحرام فيعود أجره إلى أصحابه ، يوم تعود الحقوق إلى أهلها ذاتيا يوم الحساب .

كان اسم هذا الشيخ الجليل، عليه

رحمات الله ، داءود الكرحة ، الذي توفي سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥م)، فشيعته الموصل كلها الى مقره الأخير، وكان يوم وفاته يوما مشهودا، لأنه كان من علماء الرحمن لا من علماء السلطان ، وهطلت عليه الرحمات من أفواه المشيعين، كأنها شآبيب الأمطار في يوم مطير.

لقد أثّرت هذه القصة الواقعية في نفسيتي منذ كنت طفلا ، وكنت ولاأزال وسأبقى أذكرها وأذكر حكمتها ، المال الحلال خير وأبقى .

وقد تأثرت في حياتي العملية بقصص من الواقع ، أروي منها هنا قصتين وقد سبق أن نشرت قصة منها في عدد سابق بمجلة الوعي الإسلامي لكنها على بساطتها أثرت فيّ تأثيراً لاتمحوه الأيام، وسيبقى تأثيرها معي مابقيت على قيد الحياة.

وهدفي الأول والأخير من رواية هذه القصص هو العبرة لمن يعتبر ، لعل الله يفيد بها غيري من الناس .

أما الأولى، فقد حدثت يوم كنت طفلا في الخامسة من عمري على أكثر تقدير. فقد طرق باب دارنا فقير من الفقراء ، فأسرعت جدتي التي كانت ترعاني الى الباب ، ثم عادت مسرعة الى غرفتها بدون ثوب، فأخرجت من خزانة ثيابها ثوبا آخر ، واكتست به ، وهي تحمد الله وتشكره وتثني عليه .

وقالت : كان الفقير في أسماله يرتجف من البرد القارس، فخلعت ثوبي وكسوته به، ففرح بالثوب فرحا عظيما ، ومضى إلى سبيله شاكرا ممتنا فرحا، وهو يجهش بالبكاء من الفرح الغامر لا من الحزن الشديد .

ومن يومها، عزمت ألا أرد سائلا، فإذا عجزت عن معونته بالمال ، أكرمته بما يتيسر من لباس أو متاع أو طعام ، وإلا صرفته بالحسنى معتذرا منه ، على نية أن أقدم له ما أستطيع في موعد قريب .

وأكرمني الله سبحانه وتعالى، بما لا أستطيع وصفه وبيانه ، وحسبي أن أذكر أن فضله كان عليّ عظيما ، فما احتجت إلى شيء مادي أبدا، وما ضاقت عليّ الأمور ، إلا وجعل الله لي من أمري مخرجا ومن عسري يسرا ، ورزقني من حيث لا أحتسب . ولقد حوربت في رزقي مرارا ، فظن الذين حاربوني بأنني سألجأ اليهم محتاجا ، ولكنني لم ألجأ إلا إلى الله وحده ، وكان الله يعوض على فورا ، ويرزقني من حيث لا أحتسب .

وقد يسد البشر بابا من أبواب الرزق ، فإذا وثق المؤمن بالله ولجأ إليه ، فتح له أبوابا للرزق ، وصدق الله العظيم : **(يَمْحَقُ الله الربا ويُربي الصدقات)**. البقرة/ ٢٧٦

أما القصة الثانية: التي تركت عبرتها الباقية في نفسي، فحدثت يوم كنت في العشرين من عمري، حين كنت ضابطاً صغيراً في مقتبل حياتي

العسكرية، أعمل طالباً في مدرسة الفرسان ببغداد.

فقد عرضت للبيع أرض للأوقاف النبوية، على الضباط والموظفين، بثمن بخس، وجرى تعميم هذا العرض على الضباط وأصحاب المناصب العليا من الموظفين، فتسلَّمت نسخة من هذا العرض.

كان ثمن المتر الواحد من تلك الوقفية عشرة فلوس (قرش واحد)، وكانت الأرض قريبة جداً من أبنية بغداد وأسواقها وقلب العاصمة، وكان باستطاعة الضابط أن يتملك آلاف الأمتار ببضعة دنانير، يدفعها أقساطاً.

وحملت هذا العرض في ورقته الرسمية إلى والدي، فقرأ العرض، وتوقعت أنه سيفرح به، ولكن رأيته قد تمعَّر وجهه واحتقن غضباً لله تعالى، ثم رمى العرض بوجهي قائلاً: «ياولد! هذه الأرض أوقاف نبوية لاتباع، وهذه الورقة لا تحلِّل ولاتحرم، ولاينجيك كاتبها والآمر ببيع الأرض من عذاب الله... إنها نار... نار... نار، فحذار أن تدخلها».

ولم أكن في حينه أعرف الأوقاف ولا الأوقاف النبوية، بل لم أكن قد سمعت بأنها حلال أو حرام، فابتعدت عن شراء قطعة من تلك الأرض، التي أصبحت بعد سنوات قليلة قصوراً ضخمة، وبقيت أتنقل من دار مستأجرة إلى مثلها، تسمى داراً في التعبير المجازي، لبساطتها وقدمها وضيق مرافقها وحرمانها من الشمس والخضراء والهواء النقي، ولأنها صغيرة المساحة.

ولكن فرحة الذين تملكوا تلك الأرض، لم تطل، لأنهم احترقوا بنارها، فقتل قسم منهم، وأُعدم آخرون، وسحل بعضهم، ومات عدد منهم في الغربة بعيدين عن قصورهم مشردين مطاردين، ووقع البلاء على ذرياتهم، فمرضوا أو أُصيبوا بسمعهم وأعراضهم، ولاتزال لعنة تلك الأرض تلاحق ذراريهم حتى اليوم.

وقد أصبح ثمن المتر الواحد من تلك الأرض خمسمائة دينار، فما انتفع الذين اشتروها ولا ذريتهم بغلائها، وهل ينتفع بالمال أهل القبور؟!

وحملني الخوف من نار الأوقاف أن أدافع باستقتال عن الأملاك الموقوفة، وقد حدث أن استولت إحدى المؤسسات الحكومية على أرض موقوفة وتصرفت بها، فرفعت معاملة الاستملاك إلى المراجع العليا، للموافقة على الاستملاك وتقرير الثمن المناسب.

وكانت المؤسسة التي استملكت الأرض الوقف قد أصبحت بإمرتي، وكان المفروض أن أدافع عن مصلحة المؤسسة الحكومية ووجهة نظرها في الاستملاك والتصرف بين الزملاء،

ولكنني لم أفعل.

كان الزملاء في حينه معي قلباً وقالباً، لأنهم ينسجمون في الدفاع عن مصلحة الحكومة وحدها دون مصلحة الناس، ولأنهم ـ غالبا ـ لايفرّقون بين الأرض الموقوفة وغير الموقوفة، بل لايعرف أكثرهم على الأوقاف الإسلامية شيئاً مذكوراً، وكان المسئول عن الأوقاف معي أيضاً، فكان الجو السائد ملائماً لاستملاك الأرض الموقوفة أو نهبها لقاء دراهم معدودات، وكانت المؤسسة الرسمية التي أصبحت بإمرتي قد استملكت الأرض وتصرفت بها قبل أن أكون مسئولاً في الدولة، فهل يتم استملاك أرض الوقف على مسئوليتي بثمن رمزي زهيد، وأتقبل الاحتراق بنار لم أكن من دعاة إضرامها ولا أرضى بإضرامها؟

ووقفت معارضاً الاستملاك بثمن بخس، وطلبت إعادة تقدير ثمن الأرض من جديد، ليصبح ثمنها كأمثالها تماماً، فارتفع سعرها أربعين ضعفاً، لأن سعر المتر المربع قدّر أول مرة بربع دينار، وقدّر في المرة الثانية بعشرة دنانير.

واستغرب الزملاء من موقفي المعارض لمصلحة المؤسسة التي بإمرتي ومصلحة الحكومة، والمفروض أن أكون المدافع الأول عن تلك المصالح، وما دروا أن كلمة والدي خطرت ببالي في أثناء مناقشة الاستملاك، وكانت تلك الكلمة تصرخ بشدة في أذني: «هذه أوقاف نبوية... إنها نار... نار... نار...» .

وهربت من النار التي كانت تحرقني، ولكن الله سلَّم.

وبالطبع كان الزملاء الذين أرادوا استملاك أرض الوقف بثمن بخس، والزميل المسئول المباشر عن الوقف الذي تسامح بالاستملاك، يظنون أن ذلك يرضيني وأنني أرغب فيه، ولكن خاب ظنهم حين وجدوني معارضاً لهم لا منسجماً معهم، دون أن يعرفوا سر معارضتي التي اعتبروها شذوذاً لا مسوغ له.

واليوم أكشف عن سر معارضتي لذلك الاستملاك، بعد أن كتمته أكثر من عشرين سنة، ليكون عبرة لمن يعتبر، بعد أن أصبح أكثر أولئك الزملاء في جوار الله، وبعد أن يئست من تولي المناصب الحكومية، أو هي يئست مني على أصدق تعبير، وما أسعدني في حياتي والحمد لله، فأنا في نعمة سابغة عظيمة، أحمد الله عليها وأشكره صباح مساء.

إن الناس الذين يظنون أن السعادة تكون بالثراء العريض والمناصب الرفيعة والجاه المزيف، مخطئون كل الخطأ أو مغرر بهم كل التغرير، فالمناصب والمال والجاه ليست كل شيء في هذه الحياة الدنيا،

وبخاصة إذا جاءت بشكل أو أسلوب غير مشروع.

بل إن المال الحرام والمناصب والجاه وغيرها من متاع الدنيا الزائلة، التي تقتنص بأساليب غير مشروعة أو تؤخذ غلاباً واغتصابا، ليست إلا شقاء دائماً وعذاباً مقيماً، لأن السعادة تكون في راحة الضمير واطمئنان النفس، وهما ثمرتان يانعتان من ثمرات الحلال لا من دغل الحرام.

والذين يغترون بمظاهر السعادة للأغنياء وأهل السلطان والجاه العريض، فرب سعيد في مظهره، شقي في مخبره، أما إذا كان الثراء والجاه والسلطان على أسس من الحرام، فلا بد من أن تنهار بأصحابها اليوم أو غدا وحينذاك يحمد الله الذين تمنوا مكان ومكانة أولئك الذين شيدوا بنيانهم على جرف هارٍ فانهار بهم، لأن أمانيهم لم تتحقق، ففازوا بالسلامة على الأقل، حيث فاز المترفون بالندامة، وصدق الله العظيم: «**إنَّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ماإنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لاتفرح إنَّ الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إنَّ الله لايحبُّ المفسدين.قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولايسئل عن ذنوبهم المجرمون. فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارونٍ إنه لذو حظ عظيم.وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولايلقاها إلَّا الصَّابرون ،فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين. وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون.تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولافساداً والعاقبة للمتقين**». القصص/ ٧٦ ـ ٨٣

لقد عجزت عن تبيان ما أردته بكلماتي وأسلوبي، فجاءت آيات الله في كتابه العزيز مفصلة ما عجزت عن تبيانه، بكلمات القرآن الكريم المعجزة وأسلوبه البياني المعجز البليغ، فالحمد لله على أفضاله في كل حال.

وما على المرء الذي يريد أن يكون سعيداً بحق في الدنيا والآخرة، سعادة كاملة، إلَّا أن يتفهَّم معاني هذه الآيات

الكريمة، ويعمل بها في حياته، ويلتزم بها نصاً وروحاً التزاماً كاملاً.

وطالما سمعت قسماً من الأخوة يتذمرون من حالتهم المادية، بحجة أن فلاناً أغنى منهم، وهو دونهم في كفايته وعلمه وفلاناً أوسع منهم داراً، وهو أقلهم علماً واقتداراً.

وكان ردي على كل متذمر منهم: إنك أغنى من النبي صلى الله عليه وسلم مالاً، وأدسم طعاماً، وأوسع داراً والسعيد هو الذي يقتفي آثار الذين فازوا باستقامتهم، لا المنحرفين الذين شقوا. والحد الفاصل بين الحق والباطل، هو الالتزام بالحلال، ورفض الحرام، ويجب أن نرثي للملوثين بالحرام، ولانغبط إلا المتمسكين بالحلال.

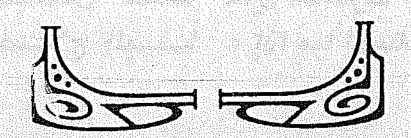
وقد مرَّت بكل إنسان حي أحداث كثيرة، خسر فيها أصحاب الحرام الدنيا والآخرة، وربح بها أهل الحلال الدنيا والآخرة، وكان أهل الحلال هم السُّعداء، وكان أهل الحرام هم التعساء، وصدق الله العظيم: «**من عمل صالحاً من ذكر أو أُنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيَاة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون**». النحل/٩٧

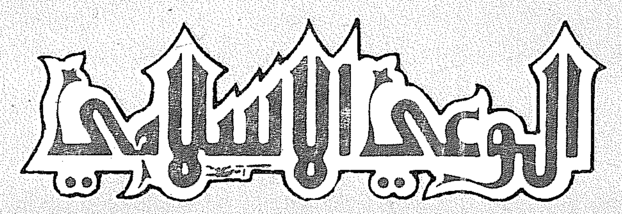
إن الرزق الحلال، هو الذي يبقى ويدوم، ويحمى الأسرة وربها ويصونه ويبارك فيه وفيهم في الحاضر والمستقبل.

والرزق الحرام، هو الذي لايبقى ولايدوم، ويهدم الأسرة وربها ولايصونهم ولا يبارك فيهم في الحاضر ولا في المستقبل.

إن السعادة في الحلال، والشقاء في الحرام.

تلك هي بعض ما تعلمته من حياة أقدمها لأخوتي في الله، لعل فيها فائدة لهم ولمن يعولون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.





إسلامية ثقافية شهرية

العدد ٣٠٩ - رمضان ١٤١٠ هـ - إبريل ١٩٩٠م

المؤتمر الثالث للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ص ٧٨



دور المجلس في مواجهة قضايا العصر

ص ٦٨





محتويات العدد